(٥٢)

الخَبِيرُ جَلَّ جَلَالُهُ

أخرج النسائي بسند صحيح: أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ؛ فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه.

فلما كانت غزوة خيبر؛ غنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء؛ دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ؛ فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ؛ فقال: ما هذا؟ قال: «قَسَمْتُهُ لَكَ»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا -وأشار إلى حلقه بسهم-؛ فأموت، فأدخل الجنة.

فقال ﷺ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار.

فقال النبي ﷺ: «أَهُوَ هُوَ؟»، قالوا: نعم، قال: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، ثم كفنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا؛ أَنَا

شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ».

أعمال الجوارح تتبع أعمال القلوب؛ والنجاة يوم القيامة في سلامة القلب؛ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩]، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله العليم الخبير! قال الله ﷻ عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾[البقرة:٢٣٤].

فربنا عالِم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها.

أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، والماضي والحاضر والمستقبل؛ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

يخبر بعواقب الأمور ومآلاتها وما تصير إليه، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾[الفرقان:٥٩].

فالله عليم بظواهر الأمور، خبير ببواطنها.

خَبِيرٌ بِالحَقَائِقِ وَالمَعَانِي ... عَلِيمٌ لاَ يُمَارَى أَوْ يُجَارَى

مُحِيطٌ لاَ يَفُوْتُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ... وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا تَوَارَى

❐ مقام الإحسان:

ومن علم أن الله خبير ببواطن أمره، مطلع عليه؛ استحى أن يراه الله فيما لا يحب، ثم أحسن عمله، وأخلص عبادته؛ حتى يصل به الحال إلى مقام الإحسان؛ الذي ورد في الحديث الصحيح: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

قال أبو حاتم: "قطب الطاعات للمرء في الدنيا هو: إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر".

❐ السر في القلب!

وإنك لترى عملاً صالحاً يعمله الرجلان؛ فيتقبل من أحدهما، ولا يتقبل من الآخر! فهذا يصلي فتقبل صلاته، وبجانبه آخر يصلي فلا يكون له من صلاته إلا ما عقل منها، قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ، وَلَعَلَّهُ لَا يَكُونُ لَهُ مِنهَا إِلَّا عُشْرُهَا، أَوْ تُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا، أَوْ سُدْسُهَا»؛ حتى أتى على العدد. [حديث صحيح. رواه ابن حبان].

وهذا يتصدق؛ فيتقبلها الله وينميها له -كما ينمي أحدنا فلوه-، والآخر يتصدق؛ فيردها الله، بل ويعذب بها! ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾[البقرة:٢٧١].

ذاك الذي يغض بصره أمام الناس ويتصنع! ثم إذا خلا بنفسه مد

بصره إلى الحرام وانتهك المحرمات؛ هل يستطيع أحد أن يطلع على قلبه عدا الخبير البصير؟ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[غافر: ١٩].

من خطورة العيش بين الطاعة و المعصية أنك لا تدري في أي فترة منهم ستكون الخاتمة .

فالخلوة إما ترفع وإما تخفض، فمن عظَّم اللهَ في خلوته عظَّمه الناس في جلوته.

وقال الإمام مالك ﷺ: "من أحب أن تفتح له فرجة في قلبه، وينجو من غمرات الموت وأهوال القيامة؛ فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية".

قال ابن رجب ﷺ: "الخاتمة الحسنة لا تقع إلا لمن كانت سريرته حسنة؛ لأن لحظة الموت لا يمكن تصنّعها، فلا يخرج حينئذٍ إلا مكنون القلب".

وَاللهُ ﷻ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ الخَبِيرُ، بل ربط اسمه ﷻ (الخبير) بما يفعله ويعلمه ويصنعه الإنسان فوق عشرين مرةً؛ ليحثه على التقوى؛ ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

[المائدة:٨].

وحثه أن ينظر لأعماله باطنها وظاهرها، فمن زاد إيمانه بهذا الاسم: (الخبير)؛ أصبح خبيرًا بما يجري في عالمه، وعالمه هو: قلبه وبدنه،

والخفايا التي يتصف بها القلب؛ من غش وخيانة وإضمار الشر.

والله ﷻ لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [العاديات:٩-١١].

❑ المعية:

والعبد المؤمن إذا أخذ حظه من اسم الله: (الخبير ﷻ)؛ أصبح في معية الله، وإذا أصبح في معيته يرفعه ويطهره، ويجعله مشغولاً بهذه المعية عن غيرها، ويجعله في حذر دائم وخشية دائمة، ويكفيه الله دنياه، ويجعلها تأتيه راغمةً، ويجمع شمله، ويبارك له في كل ما رزقه، ولا يعرف الضيق والهم والشيطان إليه سبيلاً؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾﴾ [الطلاق:٢].

يَا مَن يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ المُعِدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ المُشْتَكَى وَالمَفْزَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُّ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا ... فَالْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

اللهم! الطف بنا؛ يا خبير.. يا عالماً بالسرائر والضمائر!